

المستطرف في كل فن مستظرف

النوافل ملازما للفرض وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض لم يتمتع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورا عديدة وكان B كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحا لجميع خلقه من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه فيقبل ببشره وبره عليه فيخرج عنده وهو وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم .

(وإنني لألقي المرء أعلم أنه ... عدوى وفي أحشائه الضغن كامن) .

(فأمنحه بشرى فيرجع قلبه ... سليما وقد مات لديه الضغائن) .

وكانت حملة أهل زمانه عليه وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه وكنت كثيرا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت .

(وما حملوني الضيم إلا حملته ... لأنى محب والمحب حمول) .

وكان B كثير المصافاة عظيم الموافاة شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضة وما استشاره أحد في أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه صحبتة B نحو خمس عشرة سنة فكأنها من طيبها كانت سنة ما قطع بره يوما واحدا عني حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني وكان ذلك فعلة مع جميع أصحابه قاطبة بيضا وجهه في القيامة وبلغه من فضل ربه مآربه وكان B فقيها في مذهب الإمام مالك إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير وله في علم الحقيقة أقوال وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تتبععت مناقبه لا تسع الكلام ولكني أقول كان أوجد عصره والسلام .

عاش B نيفا وستين سنة وكان الناس في زمانه في عيشه راضيه وأحوال حسنة وكان B كثير الأمراض والأسقام حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل في النزاع الى ثلث الليل الأول من